تعملها الفرش المثبتة في ذيل الحمار، ثم عرض اللوحة للبيع وقيل أن اشتراها أحدهم بـ 25000 دولار.

والآن أسألكم: هل سبقني أحد في نقل إليكم هذه الطرائف والأخبار؟ فضحك كل الحاضرين، وعبروا بالتصفيق والضحك عن امتنانهم لحكايات الفتاة وهم مسرورين.

وعلق أحدهم أن ما نسمعه اليوم، من أصوات تغني للحمار لا ينبغي أن نقدم إليهم اللوم، إلا على البذيء من الكلمات، والصوت والنغمات، لأن معظمهم بشهادة الشهود والنقاد والتقارير، صوتهم أنكر من صوت الحمير.

□□□

بين العلم والفلسفة

عاد المؤتمرون إلى قاعة المحاضرات، بعد انصرافهم عنها لبضع ساعات، قضاها معظمهم بين تناول طعام الغداء وأداء السجود والركعات، والتحاور حول ما فات من الكلمات، وتقييم الأبحاث وتبادل الرأي حول جودتها وجدة المداخلات والنقدات.

وعلى الفور جلس جحا على المنصة الرئيسية، واستأذن المؤتمرين وطلب منهم حسن الإصغاء لحديث المفكر راشد ضياء عن مكانة الحمار في الدوائر والمباحث الفلسفية.

وقال جحا: إنه موضوع شائك يحتاج إلى خلفية ثقافية، عن حكمة

الحضـارات الشرقية والغربية، التي تأثرت بالفكر السـائد ففسرت وبررت، وكذلك اسـتوعبت آراء الجانحين والشـاطحين والمصلحـين فثارت وغيرت، وطورت العقلية الإنسانية.

دكتور راشـد ضياء: السيدات والسادة كلنا نعرف أن المصادر الفلسفية، وعـلى الأخص في الحضارات الشرقية، تُسـتخلص مـن الديانات والموروثات الشـعبية، والأسـاطير والحكم العقلية. فلم ينصـف التاريخ المصري القديم حبيبنا الحمار، ولم ترفعه الأسـاطير إلى درجة المعبودات الأخيار، بل حشرته ضمن حكايات قوى الردع في أسـاطير "سـت" و"بس" والعصاة والأشرار. ولكـن الأبحـاث الحديثة ذكرت أن صورته عند المصريـين كانت تلقى كل تبجيل واحـترام، فجهده وعونه للمزارعين والمسـافرين لا ينكره إلا اللئام، أمـا السـيرة الرضية والأفعـال الغبية، فتنسـب للحمار في سـيرته الوحشـية والبربرية. والخلاصة أن الموروثات المصرية والشرقية، لم تنظر للحمار على أنه شخصية محورية، ولاسيما في القضايا الفلسفية.

وقد عـبّرت الشـذرات القليلـة في الفلسـفة اليونانية، عن الحمـير بنظرة مادية ونفعية، تلك التي دفعت معظم الفلاسـفة إلى احتقارهم واعتبارهم من الحيوانات الأليفة الغبية، التي لا تصلح إلا لأن تكون مطية.

و إذا مـا انتقلنـا إلى الفلسـفة الرواقية، سـوف نجد فيلسـوفها الأشـهر « كليانتـس» قد لُقب بالحـمار لعظيم أفكاره الأخلاقية، ولمـا عُرف عنه من الطيبة والتسـامح والإخلاص في الدعوى للوحدة الإنسانية، والصبر والجلد وقـوة الإرادة والعقلية الموسـوعية والذاكرة الحديدية، ومحاربته للشـهوات الجسـدية، و إيمانه بالعناية الإلهية، وخيرية القـدر وعقلانية الإله وحكمته

الأزليـة، وكان لا يغضب من لقبه مرددا أنا ذلك الحمار الأجدر والأقدر على حمل تعاليم زينون الفلسفية، وقد أثرت كتاباته وقصائده الروحية في الفكر الأخلاقي والترانيم المسيحية.

و إذا ما انتقلنا إلى أشـهر الكتب التي تحمل اسـم حبيبنا الحمار في ميدان الفلسـفة، فإننـا سـوف نجد كتـاب «الحمار الذهبـي» الذي ألفـه أبوليوس الأمازيغـي (125 - 175م) وهـو من أوائل الكتب الأدبيـة الرمزية المؤلفة. وهـو كتـاب عجيب، جمـع بين العلـم والخرافـة والترغيـب، في عمل الخير والتحذيـر من الشـيطان والشرور والترهيـب. وقد صيغ على شـكل رواية بطلهـا حمار كان في الأصل إنسـان، أراد ذات يوم أن يصعـد إلى عالم الآلهة والسعادة الأبدية ليتخلص من دنيا الهموم والأحزان، ولكنه تحول إلى صورة الحيوان، بعد شربه شرابا مسحورا أو تناوله دهانا محظورا على الإنس والجان، أحضرتـه له محبوبته «فوتيس» دون درايـة منها بحقيقته أو خبرة أو عرفان، وتمـضي الأحـداث ذاق فيها الحـمار المسـحور، كل ألوان القسـوة والعذاب والإهانة من قبل الإنسـان الذي فـاق كل المخلوقات في تفننه في الأذى وفعل الـشرور. وقـد أدرك الحمار خـلال معاشرته للبني آدمين، مـدى انحطاطهم، وتجبرهم وغرورهم وسفالتهم وحمقهم، وانتهى إلى أن مكانهم في العالم يجب أن يكون في أسـفل السـافلين، ولم ينقذه مما هو فيـه إلا الربة إيزيس، التي أشـفقت عليه وعرفت أن روحه الطاهرة قد ضلت سـبيلها فوقعت في جسد البهائم بين قساة القلوب ونفوس الأباليس. وقد أراد المؤلف من هذه الرواية، التهكم على أخلاقيات المجتمع الروماني وعوائده التي سوف تقوده إلى أسوأ نهاية.

ورغـم ذلك لم تتبدل نظرة الفلاسـفة لحبيبنا الحـمار واتهامه بعدم الفهم والغبـاء وقلة الحيلـة، حتى جاء الفرنـسي جان بوريـدان (1300 - 1358م) ليثبـت العكس بتجربـة علمية أصيلـة، برهن فيها عـلى أن الحمار صاحب رأي وموقـف وقدرة على الاختيار بين ما ينفعه وما يضره، ويميز أصدقاءه عن الأغـراب ويحنـو إلى من يطعمه ويحبـه، ومن يقمعه ويسـبه، ولا يرحمه إذا كانت صحته عليلة.

وقـد أكـدت الأديبـة «كونتيسـة دي سـيجور» (1799 - 1874م)، في مؤلفهـا المغمور، (خواطـر حمار) الذي عدل التصـورات والآراء والأفكار التـي كانت بالـرأس تدور، حـول عقلية حبيبنـا الحمار وفلسـفته الناقدة، وتصريحاتـه التي لم يعبر عنها إلا في نظراته السـاخرة المتمردة، التي جمعت بين الأسـف والحسرة على ثقافة الإنسان التي اسـتملحت السفالة والوضاعة وعـن الحق والخير والجمال باتت شـاردة، إذ نجحـت المؤلفة في ربط الحمار بالعديد مـن الصفات الإيجابية كالـذكاء والعلم والتواضـع والطيبة، وذلك عوضا عـن البلادة والجهل والعند والحمق وغير ذلـك من الصفات المذمومة والطباع الغريبـة، ويحتوي الكتاب المذكور، على أربعة عشر فصلا جميعها يحكي ويدور، حول شـخصية البطل «كديشـون» الحـمار العالم المعروف بالتواضـع والمنزه عن الغـرور. وهي أقرب لمذكرات ناصـح صاحب دربة ودرايـة، قد عاشر المجتمع الإنسـاني ووضعه في دائرة النقد ثم عكسـه على المرايـة، ليثبت أن اللين والإحسـان، هـو الطريق الأصـوب لتربية الصغار جحـش كان أو إنسـان، وأن الغباء والذكاء في الحكم على العقول نسـبيان، فالخبرات والمعارف بحر بلا شطئان، وأن التعصب لغير الحق اليقين، لا ينجم عنه سوى البور والعنف والتخلف واستبداد مكين، يحجر على العقل ويحرمه

الموازنة والمفاضلة والاختيار والفصل بين المؤيدين والمعارضين. والكتاب في مجمله يعبر عن ثورة العقل المستنير، على تلك الحملة النكراء على الأتان والبغال وكل فصيلة الحمير.

ولعل الشاعر والروائي الفرنسي فيكتور هوجو (1802 - 1885م) هو أكثر الفلاسفة والأدباء دفاعا عن الحمار، إذ أفرد له 65 صفحة في قصيدته الحمار باسيانس التي كانت موضوعا لعشرات الندوات والأسمار، إذ وصف فيها أبا الصابرين بأنه أبرع من كانط وأنه محاور جيد وفيلسوف عظيم ينطق بالحكمة ويكشف عن الأسرار، وحذر السامعين من تعصب رجال الدين والأحبار، ومراوغة الساسة وتجار الأفكار، وبين أن نجاة العالم في تنقية الأنفس من الأحقاد ومعاقبة الأشرار. وأوضح أن الفضائل ليست حكما محفوظة كتبها أفلاطون عن أستاذه سقراط، بل هي فعل وسلوك يؤمن به الإنسان ويسير عليه من الميلاد إلى الممات، وقد برهن على نبل أفعال الحمار بقصته مع الضفدعة، التي أبى أن يدهسها وعربة كان يجرها بعجلات أربعة، وتوقف عن السير وتحمل الإهانة والضرب من راكبها، حتى لا يصيبها بضرر أو بقدميه يؤلمها، إلى أن بلغت المسكينة مأمنها.

وقد نجح المؤلف في الربط بين صديقنا الحمار، والفصل في الكثير من القضايا التي لا تتحمل التأجيل أو الانتظار، مثل قضية علاقة العلم بالدين، وضرورة الجمع بين السياسة والأخلاق في مشروعات المصلحين.

وفور انتهاء المحاضر من كلمته طلب الدكتور محمود عبدالمنعم التعقيب والمداخلة، فسمح له رئيس الجلسة نظرا لعلو مقامه ويقينه بأن في مداخلته إضافة مؤكدة.

الدكتـور محمـود عبدالمنعم: كلنـا نعرف أن الفلسـفة كانـت أم العلوم العقليـة، وأن أبحاثهـا الميتافيزيقية هـي التي أقعدتها عـن مواكبة المعارف العلمية، وذلك في العصر الوسـيط في أوروبا المسـيحية، أما في عصر النهضة والتنويـر، فتبدلت أحكامها على عديد من القضايـا ومنها نظرتها إلى البيئة وتقييمها للموجودات المعايشـة ومنها الحمير. وسوف أقص عليكم في عجالة الكثـير من الأسرار، عن القدرات البدنية والطبيعية والذهنية التي يتميز بها الحمار، وكانت وراء تحول الفلسـفات والأفكار، و إقلاعها عن وضع حبيبنا في قوائـم الـدواب المنكرة والبليـدة والمحتقرة من الأغيـار، فأصلحت ذلك بانتخابهـا لـه ليتصدر صفوف الشـطار والأخيار، على مـر الدهور وفي كل الأمصار.

فيتميز أبو الصابرين بالقوة والفحولة فيستطيع الإنجاب وهو في الرابعة، أما زوجته الأتان فتستطيع الحمل في الثالثة وبعد إحدى عشر شهرا أو يزيد تصبح مرضعة، أما الجحش فيبلغ وزنه عند الولادة أربعة عشر من الكيلوات، وهـو أربـع أضعاف الطفل الـذي تنجبـه الآدميات، وللجحش مـن العزيمة والهمة القدر الذي يمكنه من الوقوف والسـير بعد سـاعة واحدة من الميلاد، الأمر الذي لا يقارن بحركة الآدميين من البنات والأولاد، و يستطيع الجحش الاعتماد على نفسـه، في سـد حوائجه في الشراب والطعام بعد ثلاثة أيام من الولادة وأمه ترضعه، و إذا وطأ الحمار فرسـة فينتـج بغلا، و إذا وطأ الحصان أتان تنجب نغلا، و يسـتطيع الحمار البالغ حمل على ظهره نحو ثلث وزنه من الأثقال، وجر ودفـع أضعاف ذلك من العربات والبضائع والأحمال، و يصبر على العطش والجوع في الفيافي والصحاري، و يرضى بالقليل، و يقنع بالضئيل، ولا يمـل العمل في لهيـب الصيف وصقيع الـبراري، و إذا ما قورن بالإنسـان

والحصان فصوته هو الأعلى، وبصره هو الأقوى، وسمعه هو الأرهف، وصلابة عظامه هي الأنشف، وذاكرته هي الأحد، ورفسته الأشد، وهو في المواقف الصعبة أحذر، وفي التعرف على الأشخاص والأماكن أشطر، أما عمره فهو أقصر، وهو مكير بلا خباثة، وذكي لا يطمع في الملك أو الرئاسة.

وصفق جميع الباحثين لعمق حديث الفيلسوف وغرابة وطرافة تصريحات العالِم، وردد معظمهم حقا إن معرفتنا بعالم الحمير قبل هذه الندوة كانت مشوشة وحكمنا عليهم كان جائر وظالم. ولم يمضي من الوقت إلا بضع دقائق، حتى أعلن رئيس الجلسة بصوت مرتفع وأسلوب جاد ولائق، بضرورة سرعة الإجراءات، الخاصة بالنقض والتقييم وكتابة التوصيات.

فاقترح أحدهم طبع حصاد جميع الجلسات، وترجمته لعديد من اللغات، ومكاتبة جميع الهيئات، الدولية والمؤسسات، لإصدار قانون لحماية حقوق الحمير وصيانة كرامتهم وتجريم قدحهم ووصفهم بالشتائم والبذاءات، وتغليظ في ذلك الغرامات والعقوبات.

واقترح آخر إنشاء مستشفى خاص للبغال والنغال والحمير، بالمجاني وتعيين الأكفاء فيه من البيطريين و إدارته على أحدث النظم والتدابير، وتشييد متحفا تجمع فيه أثارهم المادية، وأخبارهم الثقافية، وآخر ما كتب عنهم في المباحث الفلسفية والأبحاث العلمية.

أما جحا فقد جلس منفردا في مكان قصي لمراجعة وقائع الجلسة الأخيرة وصياغة ورقة التوصيات ثم راح يحادث نفسه تراني أديت الرسالة ووفيت بالوعد، وهل كل ما قيل في حق صديقي الحمار من خلق و إخلاص في العمل يمكن أن يصعد به إلى سلم المجد، وهل الحضور أدركوا عظمة مكانة أبي

الصابرين في حياتنا الهزلية التي سادها العبث والسخف والهذر وفاق كل حد، وهل يمكننا تفعيل اقتراحاتنا وتوصياتنا ونقلها من طور الخطابة واللعب إلى ميدان الحسم والجد؟، وهل في مقدورنا استيعاب أن هذا المؤتمر ثورة من أجل التقويم والتغيير، لتلك النظرة السائدة الغبية التي تنظر إلى الصابرين والطيبين والمسالمين والقانعين على إنهم بغال ودواب تضرب بالعصا شأن الحمير، وسوف يظل هذا السؤال مطروحا أمام العقول فإجابته تحتاج إلى تخطيط وتدبير.

❐❐❐

قائمة المصادر المراجع

1. إسماعيل بن عمر بن كثير: البداية والنهاية، دار المعارف، بيروت، 1990.

2. توفيق الحكيم: حمار الحكيم، دار مصر للطباعة، د.ت.

3. توفيق الحكيم: الحمير، دار مصر للطباعة، د.ت.

4. زغلول النجار: الحيوانات في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.

5. الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، الحلبي للنشر، 1965.

6. جورج أوريول: مزرعة الحيوانات، دار الشروق، الطبعة الأولى، 2009.

7. جورج بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أمين سلامة، الهيئة المصرية للكتاب، 2001.

8. خليل حنا تادرس: نوادر جحا الكبرى، د.ن، د.ت.

9. عباس محمود العقاد: جحا الضاحك المضحك، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.

10. عبدالستار أحمد فراج: أخبار جحا، مكتبة مصر، د.ت.

11. عثمان أمين: الفلسفة الرواقية، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.

12. القمص يوحنا سلامة: اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، ط3، مكتبة مارجرجس، شبرا مصر، 1965.

13. الكتاب المقدس.

14. لوكيوس أبوليوس: الحمار الذهبي، ترجمة عمار الجلاصي، د.ن، 2000.

15. محمد رجب النجار: جحا العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1978.

16. منصور علي عرابي: حكايات جحا والحمار، القاهرة، د.ت.

17. كمال الدين الدميري: حياة الحيوان الكبرى، طلاس للدراسات والنشر، دمشق، 1992.

18. الكونتيسة دي سيجور: خواطر حمار، ترجمة حسين الجمل، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة،

19. كيف أكل بنو إسرائيل لحم الحمار المحرَّم في التوراة أثناء حصار بنهدد ملك آرام مدينة السامرة، كتاب النقد الكتابي: مدارس النقد والتشكيك والرد عليها - أ. حلمي القمص يعقوب.

20. "Donkey | Mammal", Britannica, Retrieved 10 - 13 - 2016.

21. "African wild ass (Equus africanus)", Wildscreen ARKIVE, Retrieved 10 - 13 - 2016.

22. The American Democratic Party at a Crossroads, MATT BROWNE / JOHN HALPIN / RUY TEIXEIRA.